آراء الشيخ المفيد (ره) حول تحريف القرآن ونزوله الدفعي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تأليف: محمد هادي معرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الهوية

اسم المقال: آراء الشيخ المفيد (ره) حول تحريف القرآن ونزوله الدفعي

المؤلف: محمّد هادي معرفة

نقله الى العربية: رعد هادي جباره

صف الحروف: القسم الكومبيوتري لمؤسّسة البعثة ـ قم ـ هاتف: ٣٠٠٣٤

المطبعة: مهر

عدد النسخ: ١٠٠٠

الناشر: المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى الألفية لتكريم وفاة الشيخ المفيد ـ ره ـ قم ـ الحوزة العلمية

التاريخ: رمضان المبارك ١٤١٣هـ.ق المطابق لـ فروردين ١٣٧٢هـ.ش

أولاً: قضية التحريف

للشيخ المفيد آراء قيّمة وأصيلة لا يشوبها غبش أو إبهام، بخصوص القضايا القرآنية. وإبّان تلك الفترة التي كان يُنظرُ فيها إلى الأمور الدينية نظرة تعبديّة (بمعنى التقيُّد بظواهر الروايات والمأثورات الواردة) اقتحم الشيخ المفيد هذا الواقع المتهرئ والوضع المتداعي بشهامة فريدة وجرأة شديدة وصلابة منقطعة النظير، سالكاً سبيل العقل ومحجّة الفكر، فأُثرت عنه نظرات ثاقبة ورؤىً سديدة وآراء بارزة ارتوى من نبعها الصافي وينبوعها الرقراق العالم الإسلامي بأسره.

ومن جملة آرائه السامية؛ ما ورد عنه في موضوع تحريف القرآن الذي اعتقد به الحشوية ومن سار على اثرهم، اثر تقيّدهم ببعض الروايات والحكايات، فانبرى الشيخ المفيد لمواجهة هذه المعتقدات الخاطئة والأباطيل الزائفة، مفنّداً كلّ أدلّتهم المزعومة، باسلوب رفيع وثبة حديثة، مما جعل دعواهم ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

فأوضح ـ خير ايضاح ـ أن كهذه الروايات غير المعتبرة والحكايات الاسطورية لا يمكن الاستناد إليها أو الاعتماد عليها، وان الخبر الواحد (وهو الخبر غير المتواتر) يفتقد الحجّية التعبدية حتى وان كان ذا سند صحيح، وليس له قيمة أو اعتبار عندما لا يكون مساوقاً لاتجاه عمل المكلّفين.

كان الحشوية مجموعة من المحدّثين لم يكن همّهم سوى تجميع ورواية الأحاديث، ولذلك عقدوا العزم على جمع أكبر عدد من الأحاديث بكل ما اوتوا من وسع وطاقة، ومن أيّ كان، ومن أينما استطاعوا، ومهما يكن مضمونها ومحتواها، فالمناط فيها أن تكون مما يصدق عليه اسم (الحديث).

دَيدن هذه الفرقة يتجلّى في مجرّد جمع الصحائف الحاوية على الروايات والتفاخر بها والتباهي على بعضهم بعضاً، والتسابق في هذا المضمار، فلم يك يهمّهم إلا أن يكون حجم ما جمعوه

كبيراً.

لقد كانت تلك الفرقة أقل معرفة وادراكاً من ان تتدبّر في محتوى الأحاديث المتجمعة لديها، وتبادر لاجراء مطابقة بينها وبين أصول مذهبها، أو تتحقق من صحتها وسقمها وتتأمّل فيها ببصيرة ووعي، ولذلك صاروا يدعون بـ(القشريين) و (أهل الظاهر).

ومن هذه الفرقة نشأت آفة علم الحديث، وقد اقحموا كل أخضر ويابس في مجاميع الحديث، فافقدوا اعتبار معظم الأحاديث من هذه الناحية.

لقد نقل هؤلاء روايات كثيرة حول اختلاف السلف بخصوص القرآن، في مجال جمعه وتأليفه وقراءته وكتابته، دون التأكّد من صحة تلك الروايات وبطلانها، أو مطابقتها مع الأصول المتفق عليها من الشريعة الإسلامية.

فبعض تلك الروايات ـ وفضلاً عن ضعف سندها ـ ينافي منطوقها وفحواها مع منزلة القرآن وقداسته، ويتناقض قوله ـ جلّ جلاله ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ﴾[1].

وبذلك تضع قضية سلامة القرآن وصونه ـ شاءت أم لم تشأ ـ تحت علامات الاستفهام والتساؤل.

ومن تلك الروايات حديث رجم الشيخ والشيخة الذي ظن بعضهم أنه من الآيات القرآنية، كما ورد في صحيح البخاري (ج٨/ص٢٠٨ ـ ٢١١) وصحيح مسلم (ج٤/ص١٦٧،وج٥/ص١١٦) حيث أورداه على أنه (آية منسوخة التلاوة).

وكذلك حديث الرضعة والرضعات الذي ظن بعضهم أن داجناً قد أكله أثناء غفلة الناس وانشغالهم بتجهيز جثمان النبي(ص) ودفنه، كما ورد في صحيح مسلم (ج٤/ص١٦٧).

أوكما اعتقد بعضهم أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة، كما ورد في مسند أحمد بن حنبل (ج٥/ص١٣٢)... وغيرها من الأحاديث التي اعتبرها المحققون مرفوضة جملةً وتفصيلاً.

وهكذا ظن بعض الاخباريين السُذّج ـ الذين ساروا على نهج الحشوية ـ أن ثلث القرآن ـ أي

---

١. الحجر / ٩.

أكثر من ألفي آية ـ قد سقط من وسط آية واحدة هي الآية الثالثة من سورة النساء!! وهذه الرواية تعتبر من الروايات التي انفرد بها كتاب «الاحتجاج» المنسوب للطبرسي. بينما الحقيقة أنها ـ وفضلاً عن فقدانها السند ـ وردت في كتاب لمؤلف مجهول.

لقد انبرى المحققون الفطاحل وعلماء الإسلام الأفاضل وعلى الأخص جيل الفقهاء الأجلاء ومتكلمي الشيعة الإمامية العظماء، وفي طليعتهم استاذ كرسي علم الكلام في جامعة بغداد ـ أعظم جامعة للعلوم والمعارف آنذاك ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، المعروف بالمفيد، انبروا لتفنيد هذه الأقاويل والأباطيل المصاغة على شكل روايات ومزاعم، مستخدمين اسلوباً حكيماً، ومنسجماً مع الموازين الشرعية والمعايير العقلية والعرفية، فافقدوها أي اعتبار، ولم يبقوا أي سبيل للتمسك بها في مجال اصول العقائد والمعارف، ولم يجوّزوا أي استدلال بها، وخصوصاً إذا كانت تتنافى مع اصول المذهب ومبادئه، وتؤدي إلى زعزعة قواعد الشريعة وأركانها، كأخبار الجبر والقدر، وروايات التجسيم ونظائرها، ومن جملتها المزاعم والأساطير المتعلقة بتحريف القرآن، التي لا تتجاوز كونها مجرّد ظنون وتصورات، فهي ـ علاوة على ضعف اسنادها ـ ضعيفة المضامين واهنة المدالیل.

لقد فند المحققون من علماء الإمامية منذ عصر الشيخ المفيد وحتى الآن ـ واتباعاً لآراء هذا العلاّمة العملاق المعمقة ـ شبهة التحريف تفنيداً قاطعاً، واعتبروه مرفوضاً رفضاً باتاً وبكل حال من الأحوال.

وهذا غيض من فيض، مما ورد عن الشيخ المفيد من كلمات في هذا المضمار. يقول الشيخ:

«... وأما النقصان فإن العقول لا تحيله ولا تمنع من وقوعه، وقد اختبرت القائلين به وتحدثت مع المعتزلة وغيرهم طويلاً، فلم أظفر منهم بحجة اعتمدها في فساده، وقد قال جماعة من الإمامية انه لم ينقص من كلمه ولا من آية ولا من سورة. ولكن ما جاء به في مصحف أمير المؤمنين(ع) من تأويله وتفسير الآيات انه بريء منها. وانّ ما جاء به الإمام(ع) كان من وحي الله تعالى وعلى هذا اعتبروا اسقاطه اسقاطاً لكلام الله ولكن لم يكن من جملة القرآن المعجز قط....

... وعندي ان هذا القول يعتبر أجدر بالالتفات من مقال مَن ادعى نقصان كلم من نفس القرآن وإليه انحاز ولا اعتقد غيره.

واما احتمال الزيادة ـ ان كان المقصود زيادة سورة حيث يتلبس الأمر على الفصحاء ـ احتمال مرفوض وباطل قطعاً ويخالف تحدي الصريح للقرآن وان كانت الزيادة كلمة أو كلمتان كما جاء في قراءة ابن مسعود أو نسب إليه مع ما انه يستحيل عقلاً ولكن على الله فرض أن يكشفه ما اذ كانت سبباً للإلتباس مع كلمات القرآن....».

ويقول بعد ذلك: «.... أنا لن احتمل هذا الإحتمال بل أقول بخلافه والقرآن نزيه من أي زيادة».

ويستطرد قائلاً:

(لنا في ذلك حديث عن الصادق جعفر بن محمد ـ ع ـ)[٢] والإمام ينفي في حديثه هذا أي تغيير أو تحريف في القرآن سواء بزيادة أو نقصان.

إن الروايات النافية للتحريف ـ التي أشارا إليها ـ كثيرة سوف نشير إلى بعضها فيما بعد.

ويقول في رسالة «المسائل السروية»:

«لا شك أن ما هو موجود بين الدفتين وما يضمه المصحف الشريف اليوم انما هو تمام القرآن الكريم وجميعه كلام الوحي الإلهي، وليس فيه أية زيادة مطلقاً، ولم يختلط بشيء من كلام البشر...

.... وقد أمرتنا الروايات الصحيحة الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام بقراءته كما هو والعمل به، وألا نعتني للظنون والشبهات المزعومة حول طروء النقص والزيادة عليه.

... أما ما نقل في هذا المجال فليس سوى خبر واحد فحسب، ولا يمكن الاعتماد عليه في اثبات نصّ الوحي الذي يستدعي وجود التواتر فيه بالضرورة.

.... والروايات التي اعتبرت أن اللفظ الصحيح لقوله تعالى ﴿كنتم خير أُمّة﴾ هو ﴿كنتم خير أئمة﴾... إما أن يَصْدُق عليها عنوان (التفسير)، إذ إنها لم تكن خطاباً موجّهاً لعموم الأمة، بل ان هذا التكليف ملقى على عاتق المسؤولين والأئمة، واما انها إحدى القراءات الواردة لهذه الآية، شأنها

---

٢. انظر: «أوائل المقالات»/ص٥٤ ـ ٥٦ (وفي طبعة مكتبة الداوري الثانية يوجد في ص٩٣ ـ ٩٥ .... المترجم).

شأن ما رواه الآخرون من أن القرآن الكريم قد نزل على وجوه مختلفة»[٣].

واليكم بعض الروايات الواردة في هذا المضمار:

١ ـ جاء في رسالة كتبها الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر(عليهما السلام) إلى سعد الخير ما يلي: (وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده)[٤].

لقد أوضح الإمام في هذا البيان كيف أن الأُمة قد تركت وراءها الكتاب الالهي على جانب بأن حفظت حروفه وكلماته لكنها أعرضت عن تطبيق حدوده وأحكامه وحرّفوها. أي انهم تأوّلوها وفسّروها بغير تأويلها ومفهومها الأصلي.

٢ ـ روى أبو بصير عن أبا عبد الله(عليه السلام) عن قول الله(عزّ وجل):

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمرمنكم﴾[٥].

سألته عليه السلام لماذا لم تصرح الآية أسماء أئمة الهدى؟

والإمام عليه السلام عند إجابته للسؤال لم يقل بسقوطها ولكن قال: فكما ان القرآن تضمن أصل فريضة الصلاة والزكاة ولكن احيل شرائطهما وآدابهما لبيان الرسول الأعظم كذلك موضوع الولاية وإطاعة ولي الأمر ورد في القرآن بصورة كلية واحيل تعيين ولي الأمر إلى بيان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم»[٦].

٣ ـ يروى الشيخ المفيد في آخر كتابه: (الإرشاد) عن جابر أن الإمام محمد بن علي الباقر(ع) قال:

(اذا قام قائم آل محمد(ص) ضرب فساطيط، في خارج الكوفة يعين أشخاصاً كي يقوموا بتعليم الناس ويلقنوهم القرآن حسب نزوله ويصعب هذا على الناس لأنه يخالف ترتيبه الحالي...«فأصعب ما يكون على من حفظ اليوم لأنه يخالف التأليف ...»[٧].

---

٣. الرسائل /للشيخ المفيد /ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

٤. روضة الكافي /للكليني /ج٨ /ص٥٣ /رقم١٦.

٥. النساء /٥٩.

٦. اصول الكافي /ج١ /ص٢٨٦.

٧. الإرشاد /الشيخ المفيد /ص٣٦٥.

ثانياً: النزول الدفعي للقرآن

ثمة قضية أُخرى من القضايا القرآنية التي ميّزت المحدّثين عن المحققين وطرح رأيه الثاقب فيها طليعة سلسلة علماء الإسلام ـ أي الشيخ المفيد ـ ورأيه يخالف بشكل كامل رأي أهل الظاهر وهي: قضية النزول الدفعي للقرآن.

يقول الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه المعروف بـ(الصدوق) ـ رضوان الله تعالى عليه ـ في «رسالته الاعتقادية» ما نصه:

«نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، جملة واحدة إلى البيت المعمور في السماء الرابعة، ثم نزل من البيت المعمور في مدّة عشرين سنة. وان الله أعطى نبيّه العلم جملة واحدة، ثم قال له:

﴿... ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه﴾»[٨].

تضمن هذا القول عدة نقاط:

أولاً: إن نزول القرآن تم في ليلة القدر(٢٣ رمضان) وفقاً للآية ١٨٥ من سورة البقرة، والآية ٣ من سورة الدخان والآية الأُولى من سورة القدر.

ثانياً: استغرق نزول القرآن فترة عشرين عاماً، باعتبار ان السنوات الثلاث الأُولى للبعثة كانت فترة تأخير نزول القرآن، لأن الدعوة كانت فيها غير علنية، وبعد ثلاث سنوات بدأ نزول القرآن.[٩]

ثالثاً: ان النزول الدفعي للقرآن في ليلة القدر تم على مكان يُدعى (البيت المعمور) في السماء الرابعة... ثم قال على اثرها (وان الله أعطى نبيّه العلم جملة واحدة...) وفي العبارة الأخيرة تتجلّى نقطة طريفة جداً ويمكنها أن تعتبر مفتاحاً لحل الكثير من المشكلات وجواباً شافياً لهذا السؤال:

ما الحكمة من نزول القرآن على البيت المعمور في السماء الرابعة؟

---

٨. رسالة الاعتقادات /الشيخ الصدوق /ص ١٠١.

٩. يراجع: التمهيد /ج ١ /ص ١١٠.

فالقول السالف الذكر يؤدي إلى نتيجة مفادها: ربما يكون المقصود بـ(البيت المعمور) هو (قلب النبي الأكرم)، المعمور بالفيوضات وبركات عالم القدس، المتسامي على العوالم الثلاثة:

الجماد

والنبات

والحيوان

والصاعد إلى أوج الكمال الإنساني وذروته.

كما ورد عن الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) قوله:

(ان الله وجد قلب محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل القلوب وأوعاها فاختاره لنبوّته)[١٠].

وعلى هذا الأساس؛ يمكن توجيه النزول الدفعي للقرآن في ليلة واحدة بهذا الشكل؛ وهو أن الذي نزل في تلك الليلة شمل كل أُسس الشريعة وأركانها واهدافها والرسالة التي يستهدف ابلاغها القرآن الكريم، هذا بأجمعه أُفيض على النبي الأكرم، وشمل سبيل واسلوب بلوغ الكمال الإنساني كذلك، وهذا يعد ـ بحد ذاته ـ خلاصة القرآن الكريم وعصارته وما يتابعه.

يقول المرحوم المولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني(قدس سره) في تفسير الصافي، مستفيداً هذا المعنى نفسه، ما يلي:

«ربما كان المقصود هو ان كل معاني القرآن وهدفه النهائي قد افيضت على الرسول الأكرم في ليلة واحدة كما جاء في الآية:

﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾[١١].

ثم ظهر تدريجياً وحسب الحاجة من باطن قلبه على ظاهر لسانه، كلّما أتاه جبرئيل ـ عليه السلام ـ بالوحي وقرأه عليه بألفاظه»[١٢].

---

١٠. بحار الأنوار /المجلسي /ج ١٨ /ص ٢٠٥ /رقم /٣٦.

١١. الشعراء/١٩٣ ـ ١٩٤.

١٢. ذكر المؤلف ان المصدر هو (تفسير الصافي /ج ١ /ص ٤٢) فوجدنا في طبعة مؤسسة الأعلمي ببيروت ـ وهي الطبعة الأولى ـ في ص ٥٧ (المترجم).

واختار العلاّمة أبو عبد الله الزنجاني«رضوان الله تعالى عليه» هذا المعنى أيضاً فقال:

(ويمكن أن نقول بأن روح القرآن ـ وهي اغراضه الكلية التي يرمي إليها ـ تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة)[١٣].

ويعتبر الاستاذ العلاّمة الطباطبائي ببيان أدق، معتبراً ان للقرآن حقيقة واحدة لا تتجزأ ولا تتفكّك، فيقول رضوان الله تعالى عليه:

(فالكتاب المبين ـ الذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التفصيل ـ أمر وراء هذا المنزّل، وانمّا هذا بمنزلة اللباس لذاك.

ثم إن هذا المعنى أعني: كون القرآن في مرتبة التنزيل بالنسبة إلى الكتاب المبين ـ ونحن نسمّيه بحقيقة الكتاب ـ بمنزلة اللباس من المتلبّس، وبمنزلة المثال من الحقيقة وبمنزلة المثّل من الغرض المقصود بالكلام...)[١٤].

ان الشيخ المفيد مخالف ـ مبدئياً ـ لهذه التأويلات الفاقدة للاستناد، خاصة ان كان منشأها خبر الواحد، وليس هناك من ضرورة تستوجب مثل هذه التأويلات.

يقول الشيخ المفيد(رضوان الله تعالى عليه):

(قال الشيخ أبو جعفر رحمه الله:

«ان القرآن نزل في شهر رمضان، في ليلة القدر، جملة واحدة إلى البيت المعمور، ثم أُنزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة ... الخ».

الذي ذهب إليه أبو جعفر في هذا الباب أصله حديث واحد لا يوجب علماً ولا عملاً. ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالاً فحالاً يدلّ على خلاف ما تضمّنه الحديث، وذلك أنه تضمّن حكم ما حدث وذِكر ما جرى على وجهه، وذلك لا يكون على الحقيقة إلا لحدوثه عند السبب.

وقد جاء الخبر بذكر الظهار وسببه وانها لما جادلت النبي(ص) في حكم (ذكر) الظهار أنزل الله تعالى:

---

١٣. ذكر الكاتب أن المصدر هو تاريخ القرآن /للزنجاني /ص ١٠ بينما وجدناه في طبعة منظمة الاعلام الإسلامي ـ قسم العلاقات الدولية ـ في ص ٣٨ و ٣٩ «المترجم»).

١٤. الميزان في تفسير القرآن /للعلاّمة الطباطبائي /ج ٢ /ص ١٥ ـ ١٦ /ط ٢ /دار الكتب الإسلامية.

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾[١٥].

وقوله تعالى:

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم﴾[١٦].

وهذا خبر عن ماض ولا يجوز أن يتقدم خبره فيكون ـ حينئذ ـ خبراً عن ماض وهو لم يقع بل هو في المستقبل، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة.

وهذه قصة كانت بالمدينة (بالحديبية) فكيف ينزل الله تعالى الوحي بها بمكة قبل الهجرة فيخبر بها أنها قد كانت ولم تكن. ولو تتبعنا قصص القرآن لجاء مما ذكرناه كثيراً يتسع به المقال، وفيما ذكرناه كفاية لذوي الألباب)[١٧].

وأضاف:

(وما أشبهه ما جاء به الحديث بمذهب المشبهة الذين زعموا أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلماً بالقرآن ومخبراً عما يكون بلفظ «كان»، وقد ردّ عليهم أهل التوحيد بنحو ما ذكرناه)[١٨]. وأضاف:

(وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي(ص) فأما أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد كما يقتضيه ظاهر القرآن والمتواتر من الأخبار واجماع العلماء على اختلافهم في الأداء)[١٩].

والخلاصة:

ان ما جاء في سور البقرة والدخان والقدر هو هذا القرآن الموجود المتداول في أيدي المسلمين المؤلّف من حروف وكلمات وألفاظ وعبارات، ومن المؤكد أن نزول هذا القرآن كان تدريجياً، والمقصود بهذا البحث هو هذا القرآن نفسه.

---

١٥. المجادلة/١. نزلت هذه الآية في (خولة بنت خويلد) التي جاءت النبي تشكو زوجها (أوس بن صامت).

١٦. الزخرف/٢٠.

١٧. ذكر الكاتب المحترم ان المصدر هو (شرح عقائد الصدوق«تصحيح الاعتقاد» /ص٥٨) بيد أننا لم نجده إلا بمضامين مختلفة بعض الشيء في طبعة مكتبة الداوري بقم المقدسة ملحقاً بكتاب (أوائل المقالات) في صفحة ٢٣٢ ـ ٢٣٣. وفي طبعة منشورات الرضي بقم أيضاً في صفحة ١٠٢ ـ ١٠٣ (المترجم: ر. جبارة).

١٨. المصدر السابق نفسه.

١٩. المصدر السابق نفسه.

أما أن يكون «القرآن ذا روح وحقيقة كامنة وراء الألفاظ والعبارات، وهي ـ أي الروح ـ أغراضه الكلية التي يرمي إليها وقد تجلت لقلب الرسول الأكرم منذ الليلة الأُولىٰ» كما قال به الزنجاني، فهو موضوع مقبول، ولكن ما علاقته بنزول هذا القرآن الموجود؟!

لقد أورد السيد المرتضىٰ علم الهدىٰ ـ قُدّس سرُّه ـ شرحاً مفصلاً لتوضيح قول شيخه، في جواب مسائل الطرابلسيات الثالثة [٢٠]، فليراجع.

ورأيت من المناسب هنا أن أشير إلىٰ ان هذا الموضوع أصبح ذريعةً لبعض الكُتاب المعاصرين، وحملهم علىٰ الاعتقاد ان للقرآن نزولين: «دفعي» و «تدريجي».

فقد واجه هؤلاء ـ من جانب ـ القضية التاريخية لنزول القرآن؛ اذ من المؤكد ان نزول القرآن استغرق مدة تنوف علىٰ العشرين عاماً. ومن جانب آخر، فإنهم يواجهون آيات [التي تدل علىٰ] نزول القرآن في شهر رمضان بل في ليلة القدر منه، اذ أنه ـ وحسب اعتقادهم ـ يعني ذلك نزول القرآن دفعة واحدة في تلك الليلة.

ومن أجل تبرير هذا الموضوع وتسويغه فقد ذهبوا يبحثون في ثنايا آيات القرآن الكريم عن آيات يوحي ظاهرها ـ بادئ الأمر ـ أن للقرآن وجوداً آخر غير ما يُرىٰ في قالب اللفظ والعبارة والقول والكلمات.

فمثلاً الآيتان الكريمتان في سورة البروج:

﴿إنه لقرآن كريم * في لوح محفوظ﴾ [٢١].

قالوا عنهما:

(لا ريب في أن «اللوح المحفوظ» مرحلة أدنىٰ من الله وأسمىٰ من البشر، وبناءً علىٰ ذلك يمكن القول: إن القرآن الكريم نزل في المرحلة الأُولىٰ من الله إلىٰ مرحلة تسمىٰ «اللوح المحفوظ»، وفي المرة الأُخرىٰ نزل من اللوح المحفوظ علىٰ قلب الرسول الأكرم(ص) وأُوحي إليه) [٢٢].

إننا نعتبر هذا الاعتقاد وبهذا المحمل وبهذا الاسلوب من الاستدلال خطأً فاحشاً، لأنه إذا كان

---

٢٠. المجموعة الأُولىٰ من رسائل السيد المرتضىٰ /ص٤٠٣ ـ ٤٠٥.

٢١. البروج/٢١ ـ ٢٢.

٢٢. مقال بقلم مسيح المهاجري /صحيفة اطلاعات (١٢ ـ ٦ ـ ١٣٧١) العدد ١٩٧٠٦/ص٧.

المقصود بالنزول الدفعي للقرآن ـ غير نزوله التدريجي ـ نزول هذا القرآن المتداول الآن في أيدي المسلمين، والذي أبلغه الرسول الأكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للناس باعتباره كتاباً سماوياً ومرشداً للحياة الشريفة السامية ومؤدياً لسعادة البشر دفعة واحدة، فإن هذا الرأي بعيد كل البعد عن الصواب وعن حقيقة القرآن الموجود وواقعه.

فهذا القرآن عبارة عن مجموعة من الالفاظ والعبارات والمضامين المحتوية على المعارف والاصول المبيّنة للتشريعات الإسلامية، وهو يتألف من آيات معدودة (٦٢٣٦ آية) وسور (١١٤ سورة) وقد نزل ـ بالتأكيد ـ تدريجياً، ولا يمكن القبول مطلقاً بأن هناك نزولاً دفعياً آخر له، لان ذلك يتنافى مع صبغة الآيات ونمط العبارات الواردة فيه، بشكل كامل. وقد برهن الشيخ المفيد على هذا التنافي بشكل واضح.

فالآية الكريمة:

﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾[٢٣].

تتنافى مع هذا الوهم بشكل كامل، لأن هذه الآية تدل على شيء وقع في الماضي بالفعل، وهذا لا يشمل هذه الآية ذاتها، والمقصود هو: البدء بنزول القرآن.

وكما قال الشيخ المفيد وابن شهر آشوب والعلاّمة الزمخشري والفخر الرازي ومحمد بن اسحاق وباقي المفسرين العظام: (أي ابتُدئ نزول القرآن فيه)[٢٤].

نعم، أورد علماء أجلاء أمثال الشيخ الصدوق وأبي عبد الله الزنجاني والعلاّمة الطباطبائي والفيض الكاشاني، تأويلات لطيفة وتوجيهات طريفة للنزول الدفعي للقرآن، غير نزوله التدريجي، وقد نشير إليه فيما يلي:

قال الشيخ الصدوق:

(ان الله أعطى نبيّه العلم جملة واحدة)[٢٥].

---

٢٣. البقرة/١٨٥.

٢٤. يُراجع: الاتقان للسيوطي/ج١/ص٤٠، ومجمع البيان/ج٢/ص٢٧٦، والمناقب/ج١/ص١٥٠، ومتشابهات القرآن/ج١/ص٦٣، وتفسير الكشاف/ج١/ص٢٢٧، والتفسير الكبير/ج٥/ص٨٥.

٢٥. عقائد الصدوق/ص١٠١ (والتمهيد/ج١/ص١١٦).

أي أن الرسالة التي يتضمنها القرآن والتوجيه الذي حمله للعالمين علّمهما الله لنبيّه في تلك الليلة.

ويقول الفيض الكاشاني:

(وكأنه اريد بذلك نزول معناه على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى:

﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾[٢٦].

ونزول معنى القرآن يعني المقصود الأقصى منه، وهو أهدافه العالية ومقاصده الراقية).

ومن هنا قال أبو عبد الله الزنجاني:

(ويمكن أن نقول بأن روح القرآن، وهي أغراضه الكلية التي يرمي إليها، تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة)[٢٧].

بينما عبّر العلاّمة الطباطبائي عن ذلك ببيان أروع وأبلغ قائلاً:

(إن الكتاب ذو حقيقة أُخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً ولا تجزئة، لرجوعها إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول، وإنما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طرأ عليه بعد ذلك الإحكام قال تعالى:

﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير﴾[٢٨].

اذن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر: انزال حقيقة الكتاب المتوحدة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفعةً، كما انزل القرآن المفصل في فواصل وظروف، على قلبه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً تدريجاً في مدة الدعوة...)[٢٩].

وللمزيدمن التفصيل يراجع: التمهيد/ج١/ص١٠٨ ـ ١٢٤.

قم ـ محمد هادي معرفة

---

٢٦. تفسير الصافي/ج١/ص٢٢.

٢٧. تاريخ القرآن/ص٣٨ ـ ٣٩.

٢٨. هود/١.

٢٩. الميزان/ج٢/ص١٥ ـ ١٦.